# المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن عشر بعد المئة

April 1951 — ابريل سنة ١٩٥١


سيكولوجية الحنابلة

## طبقات الحنابلة [1]


للاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي


كتاب ترجمة لحياة سبعة وتسعين علماً من أعلام الحنابلة عاشوا في القرنين الخامس والسادس الهجري ٤٦٠ هـ — ٥٤٠ هـ وضعه العالم الثقة أبو الفرج بن رجب ( ٧٣٦ هـ — ٧٩٥ هـ ) وقام بنشره وتحقيقه العالم الفرنسي المستشرق هنري لاووست، والأستاذ السوري النابغة محمد صابي الدهان، وأخرجه المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، في هذا العام.

ويقع الكتاب في ثلاثمائة صفحة، ويشتمل على ترجمة لأعلام الحنابلة في القرنين الخامس والسادس الهجري، وتمهيد مركز بقلم الناشرين عن نشوء المذهب الحنبلي، وأعلام المترجمين لرجالاته من أمثال الخلال والخرقي والقراء، وترجمة لحياة « ابن رجب » وآثاره ومؤلفاته. وذيل الكتاب بتسعة فهارس جامعة.

وقد اعتمد المحققان في بحث هذا المخطوط على ثلاث نسخ، كتبت الأولى بعد خمس سنوات من وفاة المؤلف، وكانت عمدتهما في النشر، والأخريان كتبتا بعد نيف وثلاثين سنة، وهذه النسخ الثلاث من أقدم النسخ وأوثقها. ( المقدمة ص ٢٨ ).

(١) الكتاب تأليف أبي الفرج بن رجب — نشر وتحقيق الدكتورين: هنري لاووست وصابي الدهان — انتاج المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١

ويشهد المطلع على هذا الكتاب مبلغ الجهد العظيم الذي بذله المحققان في إبراز هذا المخطوط إلى عالم النور لما قاما به من تصويب للكليات والتصرس المصحفة والمحرّفة في المخطوطات التي اعتمد عليها ، ولا يسعه إزاء هذا ، إلاّ أن يحمد لهما صنيعهما لاحياء التراث العربي ، من ناحية ، وتزويد الفكر الحديث بمادة علمية صالحة للبحث السيكولوجي من ناحية أخرى .

وإذا احتفى فريق من الناس بما ضمّ هذا الكتاب من تراجم كثيرة لرجال أتقياء متزهدين ، وما روي من أحاديث نبوية ، ومسائل فقهية منثورة هنا وهناك ، وما تحلى به من قصائد في الزهد أو الحب العفيف ، فان احتفاء المصريين ، وفرحتهم به مضاعفة ، لأنهم يقفون فيه على طابع عجيب من الناس ، متغال في الذاتية ، والغ في الانطوائية ، محصور في مثالية روحية ، وهذا الطابع من الناس موجود في كل مصر ، ولكن شخوص هذا الكتاب مجتمعة ، وتبيان سلوكهم ، وتأملاتهم ، وأحلامهم وأشعارهم ، ونوراتهم ، تمد الباحث السيكولوجي بمدد وفير لدراسة هذا الطابع الشعوري الغريب .

فجلهم فار إلى العزلة ، نافر من الحياة ، كاره لما فيها ، متوله بالله . يجد في كنفه راحته وطمأنينته ، وجذله وسعادته وهذا طابع الذاتي المحب لذاته وأهميته .

وبعضهم كان يتكئ حقده على منكرات المجتمع ، فيحمل على ناسه وأحداثه ، بلسانه ، وفي بعض الأحيان بيده ، — فالشريف أبو جعفر — وكان من أعلام الحنابلة كان شديد القول واللسان على أهل البدع ، ينكر المنكرات بيده ولسانه (ص ٢٢) — وأحمد بن العلثي — النقاش يرى مرة في دار السلطان صوراً مجسمة من الاستبرق ، فيكسرها كلها لأنها منكر (ص ١٣٠) — وأبو سعد البقال — يلقي مغنية خارجة من دار تركي ، فيقبض على عودها ويقطع أوتاره (ص ١٣٣) ، وله أخرى كانت تهاجم المواخير وتنهم الفسدات والمفسدين ، وتأتي النبيذ .

ومثل هذه الأعمال العدوانية لها دلالتها السيكولوجية ، ويمكن أن نجد تفسيرها في المركبات الأبوية ، أو الرغبات المكبوتة ، أو الأغراض الدفاعية ، التي تبدو مظاهرها لدى المضطهدين ، أو المصابين بالميلانخوليا ، أو حالات الفصام .

وكثير منهم عكف على العلم ، واشتغل بفنونه النظرية ، وقضى أكثر ليله ونهاره في التفكير — ومن أذكى أذكيائهم ، — أبو الوفاء بن عقيل — ، الذي كان يقول : —

« إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى اذا تعطل لساني من مذاكرة ومناظرة ،

وبصرى عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح ، فلا أنهض إلاّ وقد خطر لي ما أسطره (ص ١٧٦) وقد صنّف مجلدات كثيرة في التفسير والفقه ، والأصول ، والنحو ، واللغة والشعر والحكايات (ص ١٨٨) — وقد بلغ من هيامه بالعلم أنه يختسى على ضياع وقته في أثناء تناول أكله ، فكان يختار سمك الكعك وغمسه بالماء ، على الخبز ، توفراً على المطالعة ، أو تسطير فائدة لم يدركها ! (ص ١٧٧) .

ولم يقف مفكروهم على علم الحديث والعلوم الفقهية ، بل تنوعت اهتماماتهم العلمية ، والأدبية ، فاهتم — أبو الحسن بن الزاغوني — بالمسائل الحسابية ، وله كراسة في عريضها (ص ٢١٨) وبرع — أبو بكر قاضي المارستان — في علوم كثيرة منها الحساب والجبر ، والمقابلة والهندسة ، وله فيها تصانيف (ص ٢٣١) — .

وتضلع — أبو منصور الجواليقي — في علم اللغة ، والأدب ، وصنّف كثيراً في هذه الناحية ، وأمثال هؤلاء العلماء ، والأدباء المتضلعين ، يمثلون الطابع الفكري المنطوي ، المتميز بالتأمل والتحليل ، والعناية بالنواحي النظرية دون العملية .

وإلى جانب هؤلاء المفكرين ، ألمّ كتّاب الطبقات بشعراء ، تم شعرهم على صفاء ذهن ، ورقة شعور ، والملحوظ في شعرهم ، اتجاهه الى الناحية الانفعالية ، ودورانه حول الزهد ، والآخرة ، والحب العفيف ، وهذا يؤيد طابعهم الشعوري المنطوي ، ومن خير شعرائهم — أبو محمد التميمي — الذي جمع شعره بين الزهد والحب ، فقال في الزهد :

هلموا لنبكي قبل فرقة بيننا فما بعدها عيش لذيذ ونجمع
وخل التصابي والخلاعة والهوى وأمّ طريق الحق ، فالحق أنفع
وخذ جنة تنجي وزاداً من التقى وصحبة مأمون ، فقصدك مفزع[1]

ومن شعره الوجداني المتحرك ، البديع التصوير قوله : —

مررنا على رسم الديار فسلمنا وقلنا له : يا ربع أين نأوا عنا ؟!
وجدنا بدمع كالرذاذ على الثرى فعمّ المنادى فانصرفنا كما كنا
وما ذاك إلا أن رسم ديارهم به كالذي نلقى فقد زادنا حزنا
فها أيسنا من جواب رسومهم نزلنا فقبّلنا الثرى قبل أن رحنا

ومن شعرائهم المطبوعين — جعفر السراج — وكان طريفاً لطيف الأخلاق ، بعكس

(١) كتاب طبقات الحنابلة صفحة ١٠١

أغلب الحنابلة ، وقد نظم كتباً كثيرة ، فنظم في المسائل الدينية كثيراً ، كنظمه في مناسك الحج ، وله شعر وجداني رقيق ، ومن ذلك قوله : —

بان الخليط فأدمعي وجداً عليهم تستهل
وحدا بهم حادي الفرا ق من المنازل فاستقلوا
قل للذين ترحّلوا عن ناظري وانقلب حلّوا
ما ضرّهم لو أنهلوا من ماء وصلهم وعلوا

وكذلك كان — أبو الخطاب الكلوذاني — من شعرائهم الظراف ، وله قصيدة دالية شهيرة في السنة ، وله شعر وجداني عذب ، ونوادر شعرية لطيفة ومن شعره الوجداني قوله : —

وكم ذا النجي منك في كل ساعة أما لفؤادي من رضاك نصيبُ
لئن كان جني عندكم فهو والهوى منيعٌ ولكن الحبيب حبيبُ
وإن كان ذنبي عندكم كلفي بكم فما أنا منه ما حييت أتوب
غرامي بكم حتى الممات مضاعفٌ وقلبي لكم عندي عليٌّ رقيبُ

ومن لطائفه الشعرية رده على هذه الفتوى : —

قل للامام أبي الخطاب مسألة جاءت إليك وما يرجى سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة لمذ لاحت لناظره ذات الجمال لها ؟

إذ كتب على هذه الفتوى يقول : —

قل للأديب الذي وافى بمسألة سرت فؤادي لما أن أصخت لها
إن الذي فتنته من عبادته خريدةٌ ذات حسن فاتنٌ ولها
إن تاب ثم قضى عنه عبادته فرحة الله تغشى من عصى ولها !

والملحوظ أن اهتمام الحنابلة بالعلم النظري أو الأدب كان اهتماماً عارضاً ، وجل اهتمامهم كان محصوراً في علم الحديث والفقه ، وتفكيرهم في هذين العلمين مقصوراً على الأثر ، أي ما يروى عن النبي والخلفاء والصحابة والتابعين ، فهم اتباعيون لا ابتداعيون فأصول مذهبهم ، وفتاواهم الفقهية تنتهي كلها إلى السنة وتأخذ من معينها ، ولهذا نجافوا عن الرأي ، والنظر في علم الكلام وهو العلم الذي يتلمس العقائد ، والفلسفة والمنطق والتصوف وتفكيرهم على مقتضى هذا ، كان تفكيراً قائماً على أدوة الحافظة ، والاستنباط ، ولم

يكن لهم هذا التفكير المتحرر الخلاق القائم على الخيال والاصالة ، وإذا كان قد وجد فيهم كثير من المجتهدين في الفقه ، أمثال الفراء أو ابن تيمية وابن القيم وغيرهم ، فقد كان اجتهادهم ، متصلا بخيوط الآثرية ، فاذا أخذوا بالقياس أو الاستصحاب أو المصالح المرسلة ، فهو اعتماد على ما كان يأخذ به السلف الصالح عند عدم وجود نص قرآني أو حديث ، ولا نعرفه أحداً منهم تحلل من الآثرية إلا النادر ، ونذكر منهم — الطوفي — الذي كان يقدم المصلحة المتطوع بها على النص القطعي [1] وقد كان أكثر اجتهاد الحنابلة موجها إلى الأحوال الشخصية والمعاملات ، أما العبادات والعقائد فقد كانت آراؤهم فيها نقلية أثرية .

وفي الكتاب الذي بين يدينا ، لا نجد من الأعلام الذين تحدث عنهم — ابن رجب — إلا نوادر من المجتهدين ، والمخرجين ، أمثال — علي بن عقيل البغدادي — ، وعبد الله الأنصاري — ، والشريف أبو جعفر — ، وأبو الخطاب البغدادي ( الكلوذاني ) وقد أورد — ابن رجب — بعض المسائل التي تفرد بها — ابن عقيل ، ومنها : (١) إن النساء لا يجوز لهن استعمال الحرير إلا في اللبس دون الافتراش والاستناد ، (٢) إن الربا لا يجري إلا في أعيان نص عليها ، (٣) إن الوقف لا يجوز بيعه وإن خرب (ص ١٩٠) — (٤) التسوية بين الذكور والإناث من الأولاد في العطية ، (٥) الزوجة إذا كانت ضخمة الخلق لا يمكن زوجها وطأها إلا بجناية عليها ، فأنه يملك فسخ زواجها .

ولأبي الخطاب البغدادي ( الكلوذاني ) مسائل كثيرة تفرد بها ، وقد أثبتها المؤلف في الكتاب ( ص ١٤٧ - ١٥٤ ) نذكر منها : (١) إن الشاهد لا يجوز له أن يشهد على آخر في كتاب مكتوب عليه حتى يقرأه عليه ( ص ١٥١ ) — (٢) إذا غاب الزوج قبل الدخول ، فطلبت المرأة ، المهر ، فان الحاكم يراسل الزوج ويعلمه بالمطالبة بالمهر ، فان لم يبعث به إلى الزوجة باع عليه ملكه .... ( ص ١٥٠ ) — ( ٣ ) إذا رأى إنساناً يغرق ، يجوز له الافطار ، إذا تيقن تخليصه من الغرق ولا يتسع المجال لذكر ما تفرد به هؤلاء الأعلام . وفي تضاعيف هذا الكتاب مسائل تشد الالتفات ، منها ما يتصل بالعبادات ومنها ما يتصل بالمعاملات ، ومما جاء في العبادات قول — أبي الحسن بن الزاغوني — ( ص ٢١٩ — ) : إن المشهور من المذهب ، أن الدم نجس ، وفي المذهب ما يحتمل أنه ليس بنجس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، أكل من الذراع المسمومة .

ومن هذا المثال الأخير يتضح أن بعض الحنابلة في اجتهادهم ، وإن خالفوا مذهب

---

[1] مجلة كتاب أحمد بن حنبل — تأليف الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة صفحة ٣٠٤

إمامهم ، كانوا يعتمدون على حادث أثري .

والمأثور عن الحنابلة بعامة ، تشددهم في مسائل العبادات وفي المعتقدات ، وتساهلهم في النواحي التي تتصل بالناس كالأحوال الشخصية والمعاملات .

فهم يتشددون في مسائل الطهارة والنجاسة . فسؤر الخنزير نجس ، وكذا الإناء الذي يلغ فيه ، وأكل لحم الإبل ينقض الوضوء ، ولم يقل بهذا أحد من الأئمة الثلاثة [1] — وأن المضمضة والاستنشاق واجبان في الوضوء مع أنهما من السنن ، وتارك الصلاة كافر — وشارب الخمر في رمضان يغلظ له الحد ، وإلى جانب هذا ، فانهم يؤمنون أعانا مطلقاً بالقضاء والقدر خيره وشره ، [2] ويؤمنون بالمعنى الظاهر في جميع آي القرآن فيعتقدون برؤية الله يوم القيامة ، استناداً على الآية الكريمة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فاذا ما ووجهوا بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » أجابوا بأن المقصود من هذه الآية هو عدم رؤية الله في الدنيا لا في يوم القيامة .

☆

وواضح مما تقدم أن مجال أغلب الحنابلة السيكولوجي كان مجالاً ضيقاً تأثر بعوامل وراثية محافظة ، وبيئية صارمة ، وعقلية مقصورة على ناحية بعينها من التفكير ، وبهذه المؤثرات المختلفة تحدد طابعهم الذاتي الوالغ في الذاتية ، والانطوائي الغارق في الانطوائية ، والسلفي العاكف على الماضي . وكان من آثار هذا الطابع ، أن جانبوا المجتمع ، وإذا اضطروا إلى الاتصال بالناس للوعظ أو التدريس ، أو الدراسة ، كابدوا من هذا ضيقاً نفسياً ، ولاق الناس من بعضهم عنتاً ، لصراحتهم المفرطة ، وابتعادهم عن المداراة ، وقسوتهم ، بل غلظتهم على الناس ، وجرأتهم على الحكام والأمراء .

فهذا — أبو سعد البقال — يعظ الوزير نظام الملك بجامع المهدي يقول : —

« إن من هو على الخليقة أمير فهو في الحقيقة أجير ، قد باع زمنه وأخذ ثمنه » ويقول : « وأنت يا سيد الاسلام ، وإن كنت وزير الدولة ، فأنت أجير الأمة ، استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة ، لتنوب عنه في الدنيا والآخرة (ص ١٣٣ ، ١٣٤) وهذا — أبو علي البناء — كان شديداً على أهل الأهواء ( ص ٤٢ ) وهذا — ابن عقيل — يكتب مرة إلى ابن جهير الوزير ، كتاباً جهماً عنيفاً يقول فيه : —

« نُسرى بأي وجه تلقى محمداً — صلى الله عليه وسلم . . . ثم كيف تطالب الأمة

(١) كتاب أحمد بن حنبل — للاستاذ محمد أبو زهرة ص ٣٥ (٢) المرجع السابق

بتقبيل عتبة ولثم ترابها وتقبيل الحد في دهليز الحريم صباحاً ومساء ، على قدح نبيذ ، ومرح الحرام في المسكر المجمع على تحريمه ! هذا مضاف إلى الزنا الظاهر بباب بدر ، ولبس الحرير على جميع المتملقين والأصحاب ! »

« يا شرف الدين ، اتق سخط الله تعالى ، فان سخطه لا يقاومه سماء ولا أرض ، وإذ قد مات عالي بما قلتُ فلعلَّ الله ينفعني بي ، ويكفيني هوائج الطباع ، ثم لا تفتنا على ملازمة البيوت ، والاختفاء من العوام ، لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الاعظام لهذه القبائح ، أو الانكار لها ، والنياحة على الشريعة ( ص ١٧٩ ) وهذه الفقرات وأمثالها المبثوثة في كتاب « الطبقات » تفصح عن كثير من سمات الحنابلة ، وصرامتهم في الخطاب وتجردهم من المداهنة والمراءاة .

وقد ألمَّ — ابن عقيل — بسماتهم الجوهرية في الفقرة الجامعة التالية (ص ١٨٤ ) — والتي صدَّر بها الناشران المحققان كتابهما فقال :

« ثم قوم خشن ، تتلمت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقلَّ عندهم الهزل ، وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا في العلوم الغامضة ، بل دققوا في الورع وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما نيها من خشية باريها . ولم أحفظ على أحد منهم تشبيهاً ، إنما غلبت عليهم الشناعة [1] لإمعانهم بظواهر الآي والأخبار ، من غير تأويل ولا إنكار ... »

وبالنظر لما اتسم الكثير منهم بالصراحة في القول ، وعنف بعضهم على أرباب الموبقات فقد وجدوا من الناس من كان يبسط ألسنتهم فيهم ، ومن كان يرميهم بالتعصب والكفر والتجسيم ، من كان يؤذونهم ايذاءً شديداً ويكيدون لهم كيداً ألياً . فقد جاء في النقل أن أحد أعلامهم — الشريف أبو جعفر — مات بوضع السم في مداسه ( ص ٢٩ ) وورد أيضاً ، أن قوماً زاروا « عبد الله الأنصاري » — ووضعوا تحت سجادته سماً وادعوا عند السلطان أنه يستعوذ عليه ، ويذكر أن الله في صورته ! فلما نجا من كيدهم أخذوا يأمرون عليه ، حتى أخرجوه من وطنه ( ص ٢٩ ) .

وعلى هذا الغرار ، لاقى الحنابلة في كل عصر ايذاءً من العامة تارة ، وحرباً من الفقهاء المبرزين تارة ثانية ، ونضالاً من علماء الكلام ، ومن رجال الدولة أخيراً . ولكنهم لم

(١) أورد الناشران كلمة « الشناعة » ويغلب على ظني أنها « القناعة »

يبالوا هذه الحملات العنيفة في الذود عن معتقداتهم متأثرين بسيرة امامهم الأكبر — أحمد بن حنبل — الذي ضرب وسجن ليقول إن القرآن مخلوق ، فأبى ووقف — كما يقول الناشران في مقدمة الكتاب (م ١٠) عند عقيدته « وهي أن القرآن غير مخلوق » مجاهداً لم يني ولم يفتر ، ولم تتأثر نفسه بما أصاب جسده » ولقد بقي الامام متوجعاً مما أصابه من التعذيب حتى آخر أنفاسه » .

وكما أصاب الظلم أعلام الحنابلة في كل عصر ومصر ، فقد أصاب الظلم سيرهم المكنونة في الطبقات ، فهي لا تزال — كما يقول ، المحققان الفاضلان ، مخطوطة متفرقة في أطراف الأرض منها ما هو في العالم الشرقي ، ومنها ما هو في العالم الغربي لا يكاد يُعنى بها الباحثون عناية صادقة ولا يستطيعون فهم العقلية الاسلامية والفرق والمذاهب فهماً عميقاً إلا إذا وقفوا على هذه الطبقات المخطوطة ، فأشبعوها درساً وبحثاً وتحليلاً ، وموازنة ومقارنة (م ١٢) »

ولقد أسهم المحققان في إعطاء فكرة كاملة عن العقلية الحنبلية بنشر طبقات ابن رجب وهو أوسع ما وصل إلينا من تراجم الحنابلة ويستطيع الباحث أن يجد فيه بغيته وأمنيته فهو كتاب يطوي تاريخهم ويضم طائفة من الأحاديث مقرونة بالأسانيد المفصلة المتقنة ، كما يحوي مسائل فقهية كثيرة ، وفتاوى عرض منها المؤلف عرضاً غير قليل ، وهو إلى هذا كله جامع لبعض أشعارهم ، (م ٢٢) وكل هذه النواحي تناولها المؤلف في أسلوب واضح وعبارة سلسة تغلب عليها القوة والمتانة . (م ٢٨) .

وإذا طاب لبعض الباحثين دراسة هذه الطبقات لما وعت من ترجمات ، وما حوت من أحاديث ومسائل فقهية ، فانه يطيب للمصريين دراسة هذا الطابع من الرجال على ضوء سيكولوجي جديد ، وهو ما حاولناه في هذا البحث الوجيز كما يشوقهم دراسة نواحي اجتهادهم في المعاملات ، ونظرهم إلى المصلحة كعنصر من عناصر التشريع نظرة رحبة ، مما دعا المشرعون المصريون إلى الاستناد لآرائهم في تعديل بعض الأحكام الخاصة بالأحوال الشخصية ، والوقف ، والمواريث ، والوصية . ولمثل هذه الاتجاهات التي يأنس بها المصريون ، والتي يجدون مادتها في هذه الطبقات ، يحق لنا أن نسجل للناشرين الجيدين : الدكتور هنري لاووست والدكتور صامي الدهان — أجل الحمد ، وأعمق العرفان ، لما أنفقا من جهد مقدور وتحقيق بارع صبور ، لبعث هذا المخطوط في أهاب بهي وتور .

وتأميلنا وثيق في متابعة هذين العالمين ، لبعث الجزء الثاني من هذه الطبقات ، وما يتم لها من المخطوطات الأخرى ، لتوفير المادة . وتهيئة العناصر اللازمة لدراسة النواحي العصرية الجديدة التي ألمعنا إليها .